ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

الرحلات العلمية في الأندلس
خلال القرنين الثالث والرابع الهجري

حمزة مريقي

أستاذ تاريخ وجغرافيا – الطور المتوسط
عضو الرابطة الجزائرية للفكر والثقافة
ولاية الأغواط – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

كانت الرحلات العلمية في الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين أحد روافد الحياة الثقافية والعلمية ولعبت دورًا لا يستهان به في النهوض بالحياة الثقافية في الأندلس، وقد برز العديد من العلماء الذين تصدروا أفواج العلماء المهاجرين طلبًا أو بحثًا أو نشرًا للعلم في مختلف بقاع الأرض، وقد شملت اختصاصات أفواج العلماء مختلف جوانب المعرفة من علوم نقلية من فقه وحديث وتفسير وغيره من اختصاصات العلوم الدينية، وعلوم اللغة والأدب، والعلوم العقلية كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والعلوم التجريبية من الرياضيات والفلك والطب، ولعل أهم خط سلكوه هو نحو المشرق لما كان يحتله آنذاك في نفوس المسلمين وما كان به من جمهور العلماء والمشايخ، كما استقبل الأندلس هو الآخر جموعًا للعلماء سواء لنشر العلم أو التعلم على يد مشايخه أو بسبب التحفيزات من طرف حكام البلاد الذين شجع أغلبهم العلماء واهتموا بهم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١١ سبتمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٢ ديسمبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الحياة الفكرية، العلوم الدينية، علم الكلام، العلوم التجريبية، المراكز العلمية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حمزة مريقي. "الرحلات العلمية في الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجري".- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٦. ص٧٣ – ٨١.

مُقَدِّمَةُ

كانت رحلات العلماء المسلمين في مختلف بقاع الأرض شرقًا وغربًا، أحد المظاهر الحضارية التي طبعت الحضارة الإسلامية، فمن منطلق القرآن الكريم والسنة الشريفة انطلقت عديد رحلات المسلمين طلبًا أو نشرًا للعلم، وقد بلغت هذه الرحلات ذروتها وارتفع شأنها خاصة خلال الفترة التي تبعت الفتوحات الإسلامية، هذا وقد كان لمسلمي الأندلس نشاطٌ مشرف في ميادين الحضارة المختلفة الذي انبثق عنه نشاط عظيم أسهم في تقدم البشرية نحو الأفضل، ولهذا النشاط سهم وافر وجهد واضح لا يُنكر، حيث شهد القرنين الثالث والرابع الهجريين في الاندلس ازدهارًا حضاريًا شاملاً في كافة وجوه النشاط الإنساني خصوصًا النشاط العلمي.

ويعود الفضل فيه إلى الرحلات العلمية التي كانت في تواصل دائم بين الأندلس وبقاع العالم الإسلامي التي قادها أفواج العلماء الأندلسيين وغير الأندلسيين، والتي تطورت خصوصًا في عهدي عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر. ومن هنا استطاع أهل الأندلس أن يتعمقوا في ضُروب العلم والمعرفة، ويتفوقوا في ذلك، وظل الأندلسيين يقصدون حواضر المشرق، وينهلون من ثقافتهم وينزلون حيث يطيب لهم المقام. ويعتبر هذا الموضوع ذي أهمية بالغة في التاريخ الإسلامي، حيث أسال حبر كثير من المفكرين والمؤرخين، سواء المسلمين منهم أو غير المسلمين، القدماء والمعاصرين، ذلك أن هذا التاريخ كان له جانب مضيء ومؤثر في الحضارة الإنسانية عامة وفي النهضة الأوربية الحاضرة بوجه خاص، ومع ذلك لا يُذكر من هذا الفضل إلا الشيء اليسير.

الإشكالية: ما الدور الذي لعبته الرحلات العلمية في النهوض بمستوى الحياة العلمية في الأندلس نحو الرقي والازدهار؟. لتتمخض عنها مجموعة من الإشكاليات الجزئية التالية: لماذا اتجه الأندلسيون إلى الرحلات العلمية ؟ وهل كانت للرحلات العلمية أثر للنهضة العلمية في الأندلس؟

أولاً: الرحلة

١/١- الرحلة في اللغة:

الرحلة في اللغة هي السير والضرب في الأرض وجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر[1].

٢/١- الرحلة في الكتاب والسنة:

(٢/١) ١- في القرآن:

وردت عدة امثلة به مع عدم وُرود اللفظ في حد ذاته فيه إلا مرة واحدة في سورة قريش، قال تعالى﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾[2]، كما ورد في القرآن الكريم رحلة موسى مع الخضر عليهما السلام ليتعلم منه، قال تعالى ﴿وإذْ قالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبرح حَتَّىٰ أَبلُغَ مجمع البَحْرين أو أَمضي حقبًا... وَمَا فَعلته عَنْ أمري ذلِكَ ما لم تَستطعْ عَليه صَبرا﴾.[3] فهذه الآيات مثال واضح ضربه الله تعالى لطلب العلم وبيان وجوبه، وفهم المسلمون معنى ذلك مبكرًا، فسعوا لطلبه من مكان لآخر مع الحرص على لقاء العلماء والأخذ عنهم، ومن الآيات السابقة نستنتج أن الاستزادة من العلم ووجوب السعي والرحلة لأخذ المزيد منه، واجبة على الإنسان فموسى عليه السلام رحل لتحصيل علم لا يعرفه.

(٢/١) ٢- في السنة النبوية:

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله (ﷺ) قال: "... مَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه العلم سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده".[4] ورُوِيَ عن أبي سعد الخذري أن رسول الله (ﷺ) قال: "سيأتيكم أقوام يطلبون العلم فإذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحبا مرحبا بوصية رسول الله واقنوهم".[5] ويُعَدّ مسجد رسول الله بمثابة اكبر الجامعات الإسلامية اقبل إليه طلبة العلم للتزود منه، والرسول (ﷺ) يحبذ العلم على العبادة، ويتضح ذلك من قوله (ﷺ) لأبي ذر الغفاري: "لئن تغدوا فتعلم آية من كتاب الله، خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولئن تغدوا فتعلم بابا من العلم عُمل به أولم يُعمل به خير من أن تصلي ألف ركعة "[6]، وجعل الرسول (ﷺ) يحث صحابته على التبليغ عنه لمَنْ لم يسمعه، وجعل تبليغ العلم أفضل الصدقات، فعن أبي هريرة أن النبي (ﷺ) قال: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علمًا ثم يُعلمه أخاه المسلم» [7]، وفي المقابل حذر (ﷺ) من مغبة كتمان العلم وعدم نشره فقد روى عنه أبي هريرة أنه قال (ﷺ): «ما من رجل يحفظ علمًا فيكتمه إلا أتى به يوم القيامة ملجمًا بلجام من النار»[8].

ومما لاشك فيه؛ أن هذا التشجيع في الكتاب والسنة نتج عنه كثرة الرحلات في سبيل طلب العلم سواء في حياة الرسول (ﷺ) أو بعد وفاته، فقُطِعت المسافات الطويلة للسماع من العلماء المنتشرين آنذاك في مختلف الأقطار الإسلامية.

ثانيًا: بواعث الرحلات

تعددت دواعي رحلات العلماء المسلمين في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية فقد اتخذوها لُجَّةً من أجل الوصول إلى الهدف الأسمى وهو تحصيل أو بَثْ العلوم ولعل من أبرزها وليست كلها نذكر ما يلي:

١/٢- العامل الديني:

يتمثل في حث القران الكريم المسلمين على ذلك فيقول تعالى﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾،[9] ولذلك فقد كان لهذا العامل الأثر الكبير في الرحلات العلمية.

٢/٢- عامل الحج:

يمثل هذا العامل السبب الرئيس والأول لأغلبية المتوجهين إلى المشرق الإسلامي فهو العامل الذي يقضي بشد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج[10]، وقد اقتضى هذا العامل زيارة المزارات الدينية كالمسجد الأقصى وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء الصالحين في كُلٍ من بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها وهومن أقوى البواعث على الرحلة.

٣/٢- التجارة:

ساهمت التجارة مساهمة فعالة في اتساع مراكز التنقل والترحال، فانتعشت بذلك الحياة العلمية وتعددت مراكز العلم في أرجاء المعمورة الإسلامية، كما يعتبر أن أول ما ارتبطت به التجارة من العلوم هو علم تقويم البلدان والمسالك والممالك لوصف الطرق والمناخ لتسهيل عملية التجارة في مختلف البقاع.[11]

٤/٢- العامل الثقافي (طلب العلم والمعرفة):

من الطبيعي أن تكون الرحلات من أولى السبل لطلب العلم في تلك العصور والملاحظ أيضًا أن العامل الثقافي مرتبط بالعامل الديني، فالدين الإسلامي نفسه يدعو إلى العلم والمعرفة.[12] وموسم الحج وإن كان موسمًا دينيًا، إلا أنه يعد كذلك ملتقى ثقافيًا يجمع الفئات المثقفة من العلماء، إذْ أن حلقات الوعظ والإرشاد والحديث وجلسات العلم والأدب كانت تعقد في رحاب المسجد الحرام والمسجد النبوي،[13] وقد كانت هذه الرحلات على العموم رحلات دراسية يعودون من خلالها بإجازات تُخَوِّلهُم رواية الحديث.[14] يقول ابن خلدون: إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم والسّبب في ذلك أنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة علمًا وتعليمًا وإلقاءً وتارةً محاكاة وتلقينًا بالمباشرة، إلا أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتّلقين أشدُّ استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرة الشُيوخ يكون حصول

الملكات ورسوخها، فالرّحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّجال.[15]

ثالثا: الصِلات العلمية بين الأندلس والمشرق

١/٣- الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق:

كانت أهم وسيلة لنقل الفكر والحضارة المشرقية إلى الأندلس هي الرحلة ولقاء العلماء، ولقد كان الحج عاملاً أساسيًا في تشجيع الرحلات من الأندلس إلى المشرق، ولم يقتصر الأمر على الرغبة في الوفاء بالواجبات الدينية، إذ أنه في مرحلة قادمة أصبحت الرحلة بغرض العلم في حد ذاته، بل أصبحت هي نفسها ضرورة لازمة بغرض هضم التعليم المشرقي، وما إن حلّ القرن الثالث هجري حتى غدت الرحلة العلمية لدى الأندلسيين هدفا يسعون إليه كأنه فريضة ثقافية يؤدونها، بل إن العالم منهم إذا لم تكن له رحلة، كان يُعاب لديهم كأنه بذلك قد لحقه نقص كبير في شخصيته العلمية.[16]

وكان الطلاب الأندلسيون يرحلون إلى المشرق بأعداد كبيرة، ولم تتقطع الرحلة في أي وقت من الأوقات، وليس بالإمكان حصر عدد الراحلين، ولكن يمكن القول عن الرحلة سعيًا لتحصيل العلوم والمعارف أنها أصبحت تمثل ظاهرة من ظواهر الحياة العلمية في الأندلس.[17] وهذه الحقيقة يسجلها المقري بقوله: «اعلم أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب وكثر الكلام».[18] هذا ولم تنقطع صلة الأندلسيين بحواضر المشرق الإسلامي في أي فترة من فترات التاريخ الأندلسي، فقد كانت الصلات العلمية مستمرة بين الأندلس وهذه الحواضر، غير إن إقبال الأندلسيين على المشرق في القرنين الثالث والرابع كان أكثر شمولا واتساعًا من أي فترة أخرى.

وكانت الرحلة إلى المشرق تطول وتقصر حسب الفترة التي يراها الطالب كافية لتحصيله أو تسعفه إليها ظروفه وأوضاعه المادية، ولكن غالبًا ما كانت تطول الرحلة حتى تصل أحيانًا إلى عشر سنين أو خمس عشرة سنة وأكثر من ذلك، فمثلاً محمد بن إبراهيم بن حيون (ت.٣٠٥هـ) قضى في رحلته خمس عشرة سنة[19]، بينما أقام الخشني محمد بن عبد السلام (ت.٢٨٦هـ) في رحلته خمسًا وعشرين سنة قضاها في بغداد والبصرة ومكة ومصر[20]، كما قضى الأخوان أحمد وعمر ابنا يونس الحراني في رحلتهما إلى بغداد لتعلم أصول الطب عشرة أعوام.[21]

وكانت الرغبات العلمية لهؤلاء الراحلين الأندلسيين متنوعة، فمنهم مَنْ يؤثر رواية الحديث، أو يطلب الفقه، ومنهم مَنْ يحصِّل اللغة والأدب، وكثير منهم مَنْ يجمع بين هذه العلوم، ومنهم مَنْ يرحل لتعلم الطب والصيدلة والفلك، ولهذا كان الأندلسيون حريصين على تعلم جميع العلوم والمعارف. ثم أن العالم الأندلسي الذي حضي برحلة إلى المشرق لا يكاد يصل إلى موطنه حتى يتلقاه العلماء وطلاب العلم على سواء، فيقبلون عليه ويسمعون منه ويروون عنه ما يتبوؤون به مكان الصدارة في العلم والتعليم ويحضون به برعاية الأمراء، وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى اهتمام الكثير من الطلبة بالرحلة إلى المشرق.[22] وكانت رحلات الأندلسيين تتجه دائمًا إلى عواصم الأمصار الإسلامية المشهورة، مثل القيروان في إفريقية والفسطاط والإسكندرية في مصر، وبغداد والكوفة والبصرة في العراق، ومكة والمدينة في الحجاز، ودمشق وحلب في الشام ولا يعني ذلك اقتصار هذه الرحلات على هذه الأماكن، وإنما تجاوزتها إلى المناطق النائية من الشرق الإسلامي مثل خراسان وبلاد فارس، غير أن العراق ومصر والحجاز كانت هي أهم الأقاليم التي توجه إليها الأندلسيون بالرحلة.[23]

طلبة العلم في الرحلات العلمية

ومن طلبة العلم الذين وردت أسماؤهم في هذه الرحلات العلمية:

١- العلوم الدينية:

علم القراءات:

- **محمد بن وضاح بن بزيع (ت.٢٨٦هـ):** ويرجع إليه الفضل في إدخال "**قراءة ورش**" إلى الأندلس وكان لهذا العالم رحلتين إلى المشرق وتتلمذ على يد علماء كثيرين بغداديين ومكيين وشاميين ومصريين [24]، وحمل هذه القراءة عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصري (ت:٢٣١هـ)، ومن طريقة بن وضاح يقول ابن فرحون: «اعتمد أهل الأندلس على رواية ورش، وكانوا يعتمدون قبل ذلك على قراءة غازي بن قيس عن نافع »[25].

- **زكريا بن يحي:** ويعتبر ممثلاً قويًا لمدرسة ورش المصرية في الأندلس، حيث لم يكن بعد غازي بن قيس أضبط منه لقراءة نافع، ولا أحفظ بألفاظ المصريين من أصحاب ورش، حيث قرأ على كبار أساتذة مدرسة ورش في مصر، وبعد عودته روى عنه القراءة جماعة من أهل الأندلس.[26]

-أبو عمرو بن سعيد بن عثمان المعروف بالداني وبابن الصيرفي (٣٧٢-٤٤٤هـ): يُعَدّ من أبرز العلماء الذين رحلوا إلى المشرق وتلقى هناك علم القراءات عن البغداديين والمصريين والمكيين والشاميين وغيرهم، وروى كتاب "القراءات السبعة" لابن مجاهد (ت:٣٢٤هـ) سماعًا من أبي مسلم محمد بن أحمد الكاتب (تلميذ ابن مجاهد)، وصنف كتبًا في هذا العلم، وفي التفسير ومعانيه وإعرابه.[27]

الحديث:

ومن الرواة للحديث قبل منتصف القرن الثالث الهجري:

- **حبيب بن الوليد بن حبيب المعروف بدحون (ت.٢٠٠هـ)** رحل إلى المشرق في أيام عبد الرحمن الداخل، ولقي أهل الحديث، وكتب عنهم، وبَلَغ من وَلَعِهِ بالحديث أنه أثناء رحلته وُهبت له جارية ضليعة في علم الحديث، وكانت تحفظ عشرة آلاف حديث سمعتها من الإمام مالك، فتزوجها، وأنجبت له ولدًا يُسمى بِشرًا صار هو الآخر محدثًا.[28]

- **بقي بن مخلد (٢٠١-٢٧٦هـ):** الإمام الحافظ القدوة وأحد العلماء تلقى العلم على علماء الأندلس في الحديث والفقه ثم رحل إلى المشرق، فلقي جماعة من أئمة المحدثين وكبار المسندين، سمع منهم في البصرة والكوفة ومصر والشام ووسط الحرمين، قال عنه ابن بشكوال: «روى

-يعني في رحلته- عن الأئمة وأعلام السنة، منهم الإمام أحمد بن حنبل، وأبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي سيبة، وجماعات أعلام تزيد عن المائتين، وكتب المصنفات الكبار والمنثور الكثير، وبالغ في جمع الروايات، ورجع إلى الأندلس فملأها علمًا»، ولما رجع بقي إلى الأندلس رجع بمنهج جديد وبمؤلفات جديدة لم يعهدها الكثيرون من فقهاء الأندلس الذين درجوا على الطريقة التقليدية التي لا تهتم كثيرًا بالحديث والأثر، وإنما يُكتفى فيها بتعاليم الإمام مالك من "المدونة"، و"الموطأ" فحسب[29].

الفقه:

- **عيسى بن دينار الغافقي (ت:٢١٢هـ)** أصله من طليطلة رحل إلى المشرق فسمع من عبد الرحمن بن القاسم المصري تلميذ الإمام مالك (ت:١٩٩هـ) وصحبه وتفقه منه، وجمع علمًا عظيمًا، وأصبح من كبار فقهاء المالكية، إلا أنه ادرك الإمام مالك، ودوَّن ما سمعه من ابن القاسم في عشرين كتابًا.[30] ويقول عنه أحد الرواة: "كانت الفتيا تدور عليه لا يتقدمه أحد، وكانت له بها رئاسة، وذلك بعد انصرافه من المشرق... وكان فقيها بارعا غير مدافع ومن متقدمي العلماء في الأندلس"[31]. وكان خيِّرًا عابدًا وناسكًا ورعًا، من أهل العلم والعمل والخشية، وكان ابن القاسم يجلُّه ويعظمه ويصفه بالفقه والورع، ومناقب كثيرة.[32] وقد اضطلع ابن دينار بتفقيه أهل قرطبة في مذهب الإمام مالك وكرس حياته لهذا العمل التثقيفي، ساعده على ذلك مستواه العلمي الرفيع وتقواه، ويعترف محمد بن عبد الملك بن أيمن - أحد فقهاء قرطبة المشهورين (ت:٣٣٠هـ)- بهذا الدور الذي قام به ابن دينار فيقول: «هو الذي علم لأهل مصرنا المسائل، وكان أفقه من يحي بن يحي الليثي على جلالة يحي وعظم قدره» [33]، وكان لابن دينار مشاركة فعالة في التأليف الفقهي، إذ ألف كتاب "الهداية" في عشرة أجزاء.[34]

- **يحي بن يحي الليثي (١٥٢-٢٣٤هـ)** تفقه في أول نشأته على يد زياد اللخمي وسمع منه الموطأ، ثم رحل وهو ابن ثمان وعشرين سنة إلى المدينة المنورة، فسمع من مالك "الموطأ"، كما أنه سمع في هذه الرحلة من عبد الله بن وهب (ت:١٩٧هـ) تلميذ مالك، وتفقه على يد الفقيه المصري عبد الرحمن بن القاسم المالكي أحد كبار تلاميذ الإمام مالك (ت:١٩٢هـ) ودوَّن عنه مسائله الفقهية في عشرة كتب،[35] وعاد إلى الأندلس بعلم وفير، وبدأ في نشر المذهب المالكي، فازدحم عليه الطلاب وذاع صيته، وأصبح إمام زمانه، وكان يحي بالإضافة إلى أمانته ومتانة دينه وإمامته في العلم معظما لدى الأمراء لا يقطعون في أمرًا من أمور الدين إلا بعد مشورته، خاصةً فيما يتعلق في أمور القضاء والإفتاء، فقد كان المرجع الأول في تعيين القضاة وعزلهم، ومن الطبيعي ألا يشير إلا بمَنْ هو على المذهب المالكي، لأنه شريك لكل من القضاة في المسؤولية والحكم.[36]

٢- علوم اللغة والأدب:

الرحلة ولقاء اللغويين والنحويين المشارقة:

قد كانت صلة علماء قرطبة بالأساتذة المشرقيين وبالإنتاج المشرقي في ميدان اللغة قوية، وتُمِدنا المصادر بمعلومات وفيرة عن الاتصال المباشر بمشاهير اللغويين المشارقة من أمثال الأصمعي (ت:٢١٦هـ) وأبي حاتم السجستاني (ت:٢٥٠هـ) والكسائي(ت:١٨٢هـ) وغيرهم، بل إن من علماء الأندلس ممن أثارت اللغة اهتمامهم لم يقتصروا في رحلتهم على التلقي من مشايخ اللغة، وإنما توغلوا في الطلب، فلقوا أهل الأعراب وشافهوهم وأخذوا عنهم اللغة مباشرة كما فعل عبد الرحمن بن موسى الهواري[37]. ومن بين علماء الأندلس الذين رحلوا إلى المشرق وتلقوا اللغة من أعلامها خلال القرنين الثالث والرابع الهجري:

من علماء القرن الثالث:

محمد بن عبد الله بن غازي بن قيس (ت:٢٩٦هـ): رحل إلى المشرق ودخل البصرة فلقي الرياشي وغيره من أصحاب اللغة والمعاني ورواة الأخبار والأشعار، وأدخل إلى الأندلس علمًا كثيرًا من الغريب والشعر.[38]

محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن السحن بن كلب الخشني (ت:٢٨٦هـ): رحل إلى المشرق قبيل سنة (٢٤٠هـ) فلقي من علماء اللغة أبا حاتم السيجستاني والزيادي (ت:٢٤٩هـ) والمازني (ت:٢٤٩هـ) فأخذ عنهم الكثير من كتب اللغة، ودخل بغداد وكَتَبَ بها كُتُبَ أبي عبيد القاسم بن سلام الجمحي (ت:٢٣١هـ) مثل "غريب الحديث "، وأدخل الكثير من كتب الحديث اللغة والشعر الجاهلي إلى الأندلس رواية.[39]

من علماء القرن الرابع الهجري:

قاسم بن اصبغ بن محمد بن يوسف المعروف بالبياني (ت:٣٤٠هـ): محدث فقيه ومفسر لغوي، قال ابن الفرضي عنه: «كان بصيرًا بالحديث والرجال، نبيلاً في النحو والغريب والشعر، رحل إلى المشرق فنزل الكوفة وبغداد، ولقي فيها المبرد (ت:٢٨٠هـ)، وسمع من عبد الله بن مسلم بن قتيبة من كتبه (ومنها كتب في اللغة والأدب) وانصرف إلى الأندلس بعلم وفير، ومال الطلاب إليه وكانت الرحلة إليه في الأندلس»[40].

محمد بن أبي علاقة البواب (ت:٣٧٢هـ): كانت له رحلة إلى المشرق، وأخذ فيها بمصر عن أبي إسحاق الزجاج (ت:٣١١هـ)، وبغداد عن أبي بكر بن الأنباري (ت:٣٢٨هـ) وأبي عبد الله نفطويه (ت:٣١٣هـ)، والأخفش بن سعيد بن مسعدة (ت:٢١٥هـ)، وسمع من هذا الأخير كتاب "الكامل" للمبرد وهومن أوثق من روى هذا الكتاب في الأندلس.

فرج بن سلام أبوبكر القرطبي: كان معتنيًا بالأخبار والأشعار والآداب، رحل إلى المشرق ودخل بغداد، ولقي عمرو بن بحر الجاحظ (ت:٢٥٥هـ) وأخذ عنه كتبه وأدخلها الأندلس رواية عنه[41].

٣- علم الكلام والفلسفة:

- **خليل بن عبد الملك بن كليب المعروف بخليل الغفلة:** وهو الذي تجرأ واستطاع أن يعلن أنه معتزلي يقول عنه ابن الفرضي: «كان يعلن بالاستطاعة »، وقال أيضًا: «وكان خليل مشهورًا بالقول بالقدر»، إلا أن المستشرق الاسباني (أسين بلاثيوس) يقول: «أنه من أوائل مَنْ

ادخلوا تعاليم المعتزلة إلى الأندلس بحكم جهوده في إدخال كتب الجاحظ ونشرها في هذه البلاد»، مع العلم أن فرج بن سلام لم ينسب إليه انتماؤه إلى المعتزلة[42]. رحل إلى المشرق وعاد من هناك بكتاب "التفسير" المنسوب للحسن البصري، رواه عن طريق عمرو بن فائدة، وأن هذا الأخير بصري ومن المعتزلة يقول بالقدر، وتتلمذ على يد عمرو بن عبيد بن باب البصري المعتزلي وهذا يُعَدّ من مؤسسي المذهب المعتزلي[44]. ورغم أنه كان مكروها بسبب آراءه التي خالف فيها جمهور العلماء في الأندلس، إلا أنه لم يتعرض له أحد بالأذى طوال حياته، ولكن بعد موته أخرج جماعة من فقهاء المالكية كتبه وأحرقوها بالنار، إلا ما كان فيها من مسائل الفقه.[45]

- **يحي بن يحي المعروف بابن السمينة (ت:٣١٥هـ):** وكان مؤيد قوي لخليل الغفلة في الأندلس وكان يحي متصرفًا في ضروب العلم، متفننا في الآداب ورواية الأخبار، مشاركًا في الفقه والرواية وعقد الشروط، بصيرًا بالاحتجاج وعلم الكلام، نافذًا في معاني الشعر وعلم العروض والتنجيم وعلم الطب، رحل إلى المشرق ومال إلى كتب الحجة ومذاهب المتكلمين[46]. وانصرف إلى الأندلس وكان مقصودًا من عديد الناس، ولم يكن يخفي ارتباطه بمبدأ الاستطاعة الذي تقوَّلَ به المعتزلة، فقد امتدحه صاعد الأندلسي بسعة العلم واتساع الثقافة وتنوع المعلومات، ثم قال: «وكان معتزلي المذهب»، ونظرًا لمستواه الرفيع استطاع أن يكون حوله مجموعة من الطلاب والأنصار.

- **محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح (٢٦٩-٣١٩هـ):** ويعتبر أول معتزلي أندلسي دعا إلى مذهب الاعتزال بمعناه الكامل تتلمذ عند مشاهير العلماء في الأندلس مثل الخشني ومحمد بن وضاح (ت:٢٨٧هـ)[47]، وفي أيام الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ) خرج فارًا إلى المشرق بعد أن أتهم بالزندقة.[48] وبعد أن عاد ابن مسرة إلى موطنه اعتزل في ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، وأظهر النسك والورع، ومن أقوال ابن مسرة: «إن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان، وأن لله تعالى علمين: أحدهما أحدثه جملة وهو علم الكتاب أو علم الغيب، والثاني: علم الجزئيات، وهو علم الشهادة، فأنه لا يعلم منه شيء حتى يكون».[49]

٤- العلوم التجريبية:

الطب:

- **رحلة الأخوين احمد وعمر ابنا يونس الحراني:** رحلا إلى المشرق سنة (٣٣٠هـ) ودخلا بغداد، وتعلما الطب على أيدي كبار الأطباء الحرانيين، منهم ثابت بن سنان بن قرة والآخر بن وصيف الصابئي الحراني أحد العلماء بطب العيون «ولم يكن في زمانه أعلم منه في ذلك ولا أكثر مزاولة»[50]. وقضى هذين الأخوين في رحلتهما مدة عشرة أعوام، ومن المؤكد أن هذه المدة أعطتهما فرصة واسعة للاطلاع على كل ما جدَّ في علم الطب، والاطلاع على الكتب والمراجع الطبية المهمة، وكذلك التعرف على الكثير من التجارب في طرق العلاج وتحضير الأدوية، ومن ثمَّ الاستفادة من ذلك كله في تدعيم الطب في الأندلس وتطويره، يقول ابن جلجل عن أحد الأخوين وهو أحمد بن يونس: «وكان رجلاً صحيح العقل، حليمًا عالمًا بما شاهد علاجه ورآه عيانا بالمشرق»[51]، تعلم الأخوان الطبيبان طب العيون في بغداد على يد ابن واصف الحراني الذي لم يكن في زمانه أعلم منه بهذا التخصص، وقد شاهد أحمد بن يونس أستاذه وهو يقوم بعلاج أحد المرضى من ماء نزل بعينه، ومن المؤكد إن أحمد أدخل هذا العلم إلى الأندلس وأصبح ماهرًا فيه يقول ابن جلجل: «فكان يداوي العين مداواة نفيسة، وله بقرطبة في ذلك آثار»[52]، ويقول صاعد الأندلسي: «كان يداوي العين مداواة فقيه»[53]. وبمجرد أن عاد الأخوَان إلى الأندلس إستخلصهما الخليفة الحكم المستنصر لنفسه وألحقهما بخدمته بالطب دون غيرهما ممن كان في ذلك الوقت من الأطباء، وكان أحمد بعد موت أخيه عمر يشرف على طعام الخليفة، وبقي إلى خلافة هشام المؤيد (٣٠٦-٤٠٦هـ) فولاه خطة الشرطة وخطة السوق (الحسبة) في قرطبة[54].

- **رحلة محمد بن عبدون الجبلي:** رحل إلى المشرق سنة (٣٤٧هـ) ودخل هذا الطبيب البصرة وأتى مدينة الفسطاط بمصر ودبَّر مارستانها[55]، وقام على شؤونه ثم رجع إلى الأندلس سنة (٣٦٠هـ)، وأصبح من خواص أطباء الحكم المستنصر ثم هشام المؤيد ويقول عنه صاعد الأندلسي: «تمهر في الطب ونبغ فيه، وأحكم كثيرًا من أصوله، ولم يكن في قرطبة مَنْ يلحق به في صناعة الطب ولا يجاريه في ضبطها وحُسن درايته فيها وإحكامه لغوامضها»[56].

- **رحلة ابن أذين الصدفي الكرماني:** وممَنْ كانت له رحلة إلى المشرق لدراسة الطب عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن عاصم الصدفي (٣٢٧-٤٠٣هـ) وهومن أهل سرقسطة، رحل سنة (٣٨١هـ) ودخل مصر والقيروان، وألف كتابًا في الأمراض.[57]

الفلك والرياضيات:

لم يكن اعتماد الفلك والرياضيات في الأندلس بهم من كتب في هذا الميدان وإنما رحل بعضهم إلى المشرق لتحصيل هذه العلوم على أيدي علمائه ومتخصصيه، وأهم رحلة قاموا بها من أجل هذه المهمة هي رحلة أحد الراسخين في علم العدد والهندسة أبي عمرو بن عبد الرحمن الكرماني (ت:٤٥٨هـ) وهو تلميذ رائد المدرسة الأندلسية في الرياضيات وأبي القاسم المجريطي (ت:٣٩٧هـ).[58] ومن الجدير بالذكر: أن بعض العلماء الأندلسيين البارزين في علوم الفلك والرياضيات ممَنْ عاشوا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كانت لهم رحلة إلى المشرق، ودخلوا خلالها إلى العراق ومصر، غير أنه لم يذكر عنهم أنهم حصلوا هذه العلوم هناك، ومنهم أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي المعروف بصاحب القبلة (ت:٢٩٥هـ) وكان عالمًا بالحساب والعلوم، ومنهم أيضًا يحي بن يحي المعروف بابن السمينة (ت:٣١٥هـ).[59]

٢/٣- الرحلات العلمية من المشرق إلى الأندلس:

وكما كان علماء الأندلس يرتحلون إلى المشرق، كان علماء المشرق يرتحلون إلى الأندلس ولكن لنشر علومهم، وكما كانوا ينقلون إليها الكثير من الكتب ولاسيما في العلوم النقلية مثل التفسير والقراءات

وعلوم الحديث وعلوم اللغة وآدابها وكتب السير وغيرها[60]. ومن الرحالة القادمين من المشرق إلى الأندلس نذكر:

١- العلوم الدينية:

علم القراءات:

- **رحلة أبي الحسن الأنطاكي (ت:٣٧٧هـ)** وهومن أهل أنطاكية بالشام وقد عمل على نشر قراءة ورش وغيرها من القراءات، ففي سنة (٣٣٠هـ) دخل مصر وكان رأسًا في القراءات لا يتقدمه أحد في معرفتها في وقتها، وحين وجَّه الحكم المستنصر إلى مصر من يطلب مُقرئا حاذقًا فإنه لم يجد أشهر من الأنطاكي، فدخل الأندلس سنة(٣٥٢هـ)، ليصبح مقرئها وشيخها ومحدثها، ولم يكن عالما بقراءة "ورش" فحسب، وإنما كان مُجودًا للقراءات السبعة، كما يقول ابن الفرضي: «فأدخل الأندلس علما جما من القراءات ومات في قرطبة»[61]. إلى جانب التراث الروائي الذي حمله الأنطاكي إلى قرطبة عن شيوخها المشارقة فقد كان له بعض المؤلفات في قراءة ورش، رواها عنه تلميذه محمد بن عبد الله الصناع (ت:٤٤٨هـ).[62]

- **أبو نصر صاعد المقرئ البغدادي**، قدم الأندلس سنة (٣٧٥هـ) وهو أيضًا من تلاميذ ابن مجاهد البغدادي، سمع منه كتابه "القراءات السبع"، وأدخله معه الأندلس، وكانت وفاته بعد سنة من رحيله إليها سنة (٣٧٦هـ)[63].

٢- الحديث:

- **صعصعة بن سلام الشامي (ت:١٩٢هـ)** كانت البداية الحقيقية لانتشار علم الحديث في الأندلس على يد صعصعة حيث يذكر ابن الفرضي والضبي: «أول من ادخل الحديث إلى الأندلس وكتب عنه بها»، وقد روى عن جماعة من علماء الحديث الشاميين منهم الأوزاعي (ت:١٧٥هـ) ويعتبر أول مَنْ ادخل إلى الأندلس المذهب الفقهي للإمام الأوزاعي[64]. وبعد صعصعة دخل الأندلس في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) أحد علماء الكوفة، وهو أحمد بن الحسين بن الحارث أبو جعفر النخعي، «وكان يروي أحاديث كثيرة العدد»، وقد روى عنه الأمير محمد شيئا من هذه الأحاديث[65].

٣- الفقه:

عبيد الله بن عمر بن احمد بن جعفر القيسي الشافعي: ولد في بغداد سنة (٢٩٥هـ)، وتفقه بها على رؤساء الشافعية البغداديين من أمثال الإصطخري أبي سعيد الحسن بن أحمد (ت:٣٢٧هـ) والصيرفي أبي بكر محمد بن عبد الله (ت:٣٣٠هـ) والمروزي أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد (ت:٣٤٠هـ)[66]، وقد أكسبه ذلك فهما للمذهب الشافعي، وفي هذه الناحية أثنى عليه ابن الفرضي بقوله: «كان فقيها على المذهب الشافعي إمامًا بصيرًا، عالما بالأصول وبالفتوى، حسن النظر والقياس، وكان مع ذلك إمام في القراءات، ضابطًا للحروف، كثير الرواية للحديث... وكان التفقه أغلب عليه من الحديث »[67]. وقدم هذا العالم إلى الأندلس سنة (٣٤٧هـ)، وبقي فيها يعلم ويدرس الفقه الشافعي قرابة ثلاثة عشرة سنة، حتى وفاته بها سنة (٣٦٠ هـ)، وكان الحكم المستنصر يكرم وفادته ويوسع أهله ويتألفه بالعطاء ويُجِلُّه ويعظمه كثيرا، وقد ألف عدة مؤلفات في الفقه الشافعي والحديث والفرائض والقراءات وغيرها[68].

- **محمد بن احمد بن إبراهيم بن أبي بردة:** تفقه في بغداد على يد أبي سعيد الإصطخري وأبي بكر إسحاق المروزي، وكان جلوسه إلى هؤلاء الشيوخ قد أكسبه فهما واسعا، ولذا كان يفضلهم على فقهاء الشافعية في مصر، وهذا المعنى أشار إليه هو بقوله «حججنا سنة (٣٢٤هـ)، وقدمت مصر، فألفيت بها أصحاب يونس بن عبد الأعلى والمزني والربيع بن سليمان فما كتبت عنهم شيئا، ولقد صَغُرُوا في قلبي لِمَا كنت أعرفه من رجال بغداد»[69]. وكان وصوله إلى الأندلس سنة (٣٦١هـ) وتقديرًا لمكانته العلمية فقد أكرم الحكم المستنصر وفادته، وأمر بإجراء النزل عليه، وبقي في قرطبة يعلم الناس الفقه حتى خرج منها سنة (٣٧٣هـ) إلى المغرب ومات في تلك السنة[70].

٤- اللغة والأدب:

وفد إلى الأندلس في القرن الرابع هجري اثنان من كبار اللغة والأدب وهما أبو علي القالي وصاعد بن حسن الربيعي وكان لهما أثر كبير في إثراء اللغة والأدب في الأندلس.

- **أبو علي البغدادي القالي (٢٨٨-٣٥٦هـ):** يُنسب إلى مدينة قاليقلا[71]، وعندما اشتد عوده رحل إلى بغداد، فقد أخذ كتب السيجستاني ككتاب "لحن العامة"، و"كتاب الحشرات"، وكتاب "الوحوش"، وكتاب "الطير"، وكذلك كتب أبي زيد الأنصاري وكتب الأصمعي والأشعار الستة الجاهلية وغيرها[72]. رحل القالي إلى الأندلس سنة (٣٣٠هـ) وهو يحمل معه هذا الزاد الوفير من اللغة والآداب والأشعار بعد أن قضى ثلاثة وعشرين عامًا من إقامته في بغداد ودراسته الجادة هناك، وبعد أن بلغ من العمر ستة وأربعين عامًا[73]، ومن الجهود التي قام بها وهي جلب الكتب من المشرق إلى الأندلس والتي تتضمن أمهات المصادر العربية في اللغة والأدب، وما من شك أن القالي أودع في مؤلفاته ثقافته اللغوية التي حصَّلها من هؤلاء العلماء، ومن بين هذه المؤلفات كتاب "البارع" و"النوادر" و"الأمثال" و"مقاتل الفرسان" وغيرها[74].

- **صاعد البغدادي**: اللغوي والأديب، أخذ اللغة عن علماء بغداد مثل اليرافي (ت:٣٦٧هـ)، وأبي علي الفارسي (ت:٣٧٧هـ)، والخطابي (ت:٣٨٠هـ) رحل إلى الأندلس سنة (٣٨٠هـ) في أيام هشام بن الحكم المؤيد، وكان صاعد كما قال عنه الرواة: «عالما باللغة والآداب والأخبار، سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة ممتع المجالسة»[75].

وكان يمثل في عهد المنصور بن أبي عامر ما كان يمثله أبو علي القالي في أيام عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر، فصاعد مشرقي مثله، وعالم في اللغة والأدب، ولقي من إكرام المنصور ما لقيه أبو علي القالي من إكرام الناصر، وألَّف للمنصور "الفصوص في اللغة والأدب" على نحو كتاب "النوادر" للقالي، ويقول ابن حيان عن كتاب "الفصوص": «وجمع أبو العلاء صاعد للمنصور محمد بن أبي عامر كتابا سماه "الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار" وكان ابتداؤه له

في ربيع الأول سنة (٣٨٥هـ)، وأكمله في شهر رمضان من العام نفسه، وأثابه عليه بخمسة آلاف دينار في دفعة واحدة، وأمره أن يُسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في سنة (٣٨٦هـ) واحتشد له جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة» ثم قال ابن حيان «وقرأته عليه منفردًا في داره سنة (٣٩٩هـ)»، وتصدى له كثيرون وادعوا أنه لا يحمل إلا الأكاذيب وممَنْ قام بالرد عليه من أهل الأندلس العالم اللغوي سعيد بن عثمان بن أبي سعيد المعروف بالقزاز (ت:٣٩٤هـ)[76]، وقد أورد ابن بسام في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" أن تفرد صاعد هو الذي ساق إلى كتابه هذه التهمة فقال: «وما أضن أن أحد يجترئ على فعل هذا (أي الوضع والكذب)،وإنما صاعد اشترط ألا يأتي إلا بالغريب وغير المشهور»[77].

ولم يكتفي صاعد بتأليف كتاب الفصوص وإنما كتب للمنصور كتابين من الكتب الاسمار، وهي نوع من الكتب الأدبية من وحي طريقته وقوة خياله وأولهما: كتاب "الجواس بين قعطل المدحجي مع ابنة عمه العفراء" قال عنه الرواة «كتاب لطيف ممتع جدًا كان المنصور كثير الشغف به حتى رتب له مَنْ يقرؤه عليه كل ليلة»[78]، والكتاب الثاني : كتاب "الهجفجف بن غيدقان بن يثربي مع الحنوت بنت محرمة بن أنيف" هذا الكتاب على طراز كتاب ألفه سهل بن أبي غالب لهارون الرشيد في بغداد سماه "كتاب ربيعة وعقيل"[79].

٥- العلوم التجريبية:

الطب:

وأول مشاركة تذكرها المصادر فيما يتصل بتغذية الأندلس بأطباء المشرق الإسلامي كانت في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٧-٢٧٣هـ) وهو:

- **الحراني:** وهو طبيب يدعى بهذا الاسم يقول صاعد الأندلسي عنه: «رجل من أهل حران»[80]، ورد إلى الأندلس وسكن قرطبة، وبنى بها مسجدًا عرف به بجوار مسجد القمرى، وقام هذا الطبيب الحراني بنشر علمه في الأندلس، وتعلم منه بعض أطبائها تركيب عدد من الأدوية التي انفرد بمعرفتها، وكانت خاصة بأوجاع الجوف، كما كانوا يستشيرونه في التعرف على أسماء بعض العقاقير الطبية التي يصعب عليهم معرفتها، وكان هو بدوره يحتفظ لديه بأصناف منها[81].وإلى جانب ذلك فإن الحراني في ميدان الصيدلة كان ذا علم واسع بأسماء النباتات الطبية وتركيب الأدوية، وأدخل إلى الأندلس نوعا من المعجونات الطبية يعرف باسم "المغيث الأكبر"[82]، وكان يبيع الشربة منه بخمسين دينارا، وقد حاول خمسة أطباء من قرطبة منهم حمدين بن أبا، وجواد النصراني، أن يصلوا إلى حقيقة تركيب هذا الدواء، فوصلوا عن طريق إجراء بعض التجارب إلى عناصر تكوينه، وكتبوا عليه نشرة علمية، إلا أنهم أخطئوا، وحدد لهم المقادير الصحيحة[83].

وعلى العموم فقد اتسع رحيل العلماء المشارقة إلى الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وولده الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) لما عرف عنهما من رعاية العلم والعلماء، وقد كان لهما جهود بارزة في استجلاب العلماء وإكرامهم، ومن الصعب تحديد عدد العلماء الوافدين، ولكن من الواضح أنهم كانوا من عينات جيدة، وأمكن لهم أن يملؤوا الأندلس علمًا وتعليمًا وهذا بفضل تلقي مجموعة هائلة من الطلبة الأندلسيين على أيديهم العلم، علاوة عن المؤلفات العديدة والنفيسة التي ألفوها وأخرى جلبوها إلى الأندلس.

رابعًا: أهمية الرحلات

إن رغبة الأندلسيين في الرحلة وأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة وارتياد مراكز العلم في المشرق بعد أن تجاوزوا مرحلة الطلب والوصول إلى مرحلة تؤهلهم لمجالسة كبار العلماء، للأخذ والعطاء، وبهذا أُثريت الناحية العلمية بفضل هذا التبادل العلمي القائم على الالتقاء بكبار العلماء للأخذ والرواية عنهم والحصول على إجازتهم العلمية في مراكز العلم التي وصلوا إليها.[84] وبهذا أصبح منح الأستاذ الإجازة لطلابه أمرًا شائعًا، بعد تتلمذهم على يديه، مما أتاح لهؤلاء حمل علوم أهل المشرق وإجازة روايتها دون الحاجة إلى الرحلة أو الالتقاء المباشر بأصحابها.[85] كما أن الرحالة أنفسهم يحصلون على علم وافر وتجارب كثيرة في مختلف الميادين في التربية وأساليب التعليم والتهذيب نظرًا لما يصادفهم من المصاعب وتعدد من يقابلونه.

وبهذا أصبح الرحالة حلقة اتصال وتبادل فكري وعلمي بين المشرق والأندلس مما أتاح لأهل الأندلس النهل من علومهم على أيدي الرحالة الذين قاموا بتدريس تلك العلوم الدينية إلى جانب ذكرهم للمدارس منشئيها وأماكنها وعلمائها المتصدرين للتدريس فيها.[86] ومن أهمية الرحلات رحلات طلاب الحديث وتنقلاتهم بين الأقطار الإسلامية للاطلاع على الروايات المتعددة أحيانًا للحديث الواحد، ومن هذا ما حدث عندما قدم البخاري البصرة فطلبوا منه أن يعقد لهم مجلسًا، فحضر مجلسه جمع من الفقهاء والمحدثين والحفاظ والنظار، حدثهم فيه بأحاديث ليست عندهم بالأسانيد التي ذكرها.[87] وأيضًا ما يقام من مناظرات، والامتحانات التي تعقد لاختبار الكفاءة وعلم العلماء، كما أدى انتشار العلماء إلى تعدد المراكز العلمية التي أسهمت بدورها في النشاط العلمي على أيدي العلماء الموجودين بها أو العلماء المتنقلين لها الحريصين على نشر العلم بين الناس[88].

خاتمة

كان النشاط العلمي بالأندلس في تلك الفترة يدور بشكل كبير حول العلوم الدينية، باعتبارها العلوم المنبثقة من عقيدة المسلمين، الذين كانوا آنذاك يسعون سعيًا حثيثًا نحو الاهتمام بدراستها وتوضيح معالمها لأهل البلاد. هذا وقد لقيت اللغة العربية وآدابها نتيجة ذلك عناية بالغة، فأقبل الأندلسيون على دراستها والبحث فيما تتضمنه من نحو ولغة وآداب، فكان لهم فيها إنتاج نفيس. وكان الاهتمام بالعلوم الإنسانية والعلوم التجريبية بصورة كبيرة بعد أن اتسعت دائرة البحث العلمي باتساع آفاق الأندلسيين في دراسة العلوم القديمة.

ومن أبرز نتائج الرحلات العلمية للأندلسيين أنهم بعد تلقيهم العلم على شيوخ وعلماء المشرق والمغرب العربي كانوا يشدون رحالهم

إلى وطنهم ليبثوا ما توصلوا إليه من علم ومعرفة، ويختلف كل فرد منهم على الآخر في الفترة الزمنية التي يقضيها في اغترابه العلمي عن وطنه، وأثمرت رحلاتهم بالعلم الواسع وغزارة المعارف، بالإضافة إلى حملهم أنواع التصانيف وضروب التآليف في مختلف حقول المعرفة، فأعطوا بذلك الدفع لازدهار النشاط العلمي، وقد حدث الشيء نفسه تقريبًا للرحلات المعاكسة التي كانت تحدث من طرف المشارقة أو المغاربة إلى الأندلس. وما أن حل القرن الرابع الهجري حتى أصبح الأندلسيون يتوجهون نحو الاعتماد على أنفسهم في بناء كيانهم العلمي، وبذلك صاروا في موقف العطاء والإنتاج العلمي في ضروب العلم المختلفة، وهذا لا يعني أنهم قطعوا علاقتهم بالمشرق بل ظلوا على اتصال بعلمائهم ولكن في صورة أقل مما حدث قبل هذه الفترة، بحيث وصلوا إلى الاستقلال الفكري عن باقي الأقاليم الاسلامية وبدأت لمساتهم تبرز في مختلف ضروب العلم.

كما نجد ظاهرة انتقال الكتب من المشرق إلى الأندلس على يد العلماء الأندلسيين وغير الأندلسيين مما أثرى ميدان النشاط العلمي والمؤلفات، ثم بدأ الأندلسيون يؤلفون الكتب وفي الغالب نجد تآليف جديدة عن تآليف المشارقة مما أدى إلى الاستقلال الواضح والجلي للثقافة الأندلسية عن الثقافة العربية في المشرق.

أما عن الموسيقى والغناء، فقد ازدهرا بدورهما، والذي ساعد على ذلك هو بعض الأمراء بتشجيعهم المواهب الفنية واستقدام الموسيقيين والفنيين من المشرق الإسلامي، وكان وصول "زرياب" من بغداد إلى الأندلس البداية الحقيقية لتأسيس "مدرسة للغناء والموسيقى" فيها لها أنماطها وتقاليدها ومراسمها المتميزة. وأخيرًا؛ فإن ما قدمه الأندلسيون في القرنين الثالث والرابع الهجريين يُعَدّ بصدق صفحة مشرقة من صفحات التاريخ والحضارة الاسلامية التي تبرز قيمتها، فيما أسدوه للإنسانية من ثمرات الفكر العلمي التي لا تزال آثارها واضحة المعالم بينة في حضارة اليوم، وهي تشهد للمسلمين بعظيم الفضل وروعة العطاء في سبيل تقدم الحضارة الإنسانية.

الهَوامِشُ:

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٧٦.
(٢) سورة **قريش**، الآية ١-٢.
(٣) سورة **الكهف**، الآيات ٦٠-٨٢.
(٤) النووي، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج١٧، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة، (د.ت)، ص٢١.
(٥) ابن ماجه، **السنن**، ج١، طبع دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٩١،٩٠.
(٦) نفسه، ص٨٢.
(٧) نفسه، ص٨٩.
(٨) نفسه، ص٩٦
(٩) **سورة الحج**، آية ٤٦.
(١٠) خليف مصطفى غرايبة، "**الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي**"، (ق٤ - ٥هـ)، دورية كان التاريخية، ع٣ ، ٢٠٠٩م، ص ٩.
(١١) نفسه، ص ٩-١٢.
(١٢) أبوبكر العبسي، **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ج٥، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٨٨م، ص ٢٨٤.
(١٣) نوال عبد الرحمن شوابكة، **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية**، حتى نهاية القرن التاسع هجري، دار المأمون، الأردن، ٢٠٠٨، ص٤.
(١٤) عبد الواحد ذنون طه، **الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق**، ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٥، ص٧.
(١٥) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٤، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١م. ص٧٤٥،٧٤٤.
(١٦) أحمد أمين، **ظهور الإسلام**، ج٣، ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ج٣، ص٢٥.
(١٧) المقري، أحمد بن محمد بن أحمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ج٢، ص٥.
(١٨) نفسه، ج٢، ص٧.
(١٩) ابن الفرضي، عبد الله بن محمد، **تاريخ علماء الأندلس**، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٠،ج٢، ص٢٨.
(٢٠) الضبي، أحمد بن يحي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، ج١، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ج١، ص١٠٣.
(٢١) ابن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق: فؤاد السيد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص١١٣. انظر كذلك: ابن أبي اصيبعة، **عيون الانباء في طبقات الأطباء**، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص٤٨٧
(٢٢) نواب عواطف محمد يوسف، **الرحلات المغربية والأندلسية مصدر تاريخ الحجاز**، في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض،١٩٩٦، ص٩٢.
(٢٣) البشري سعد، المرجع السابق، ص٩٣.
(٢٤) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج٢، ص١٧.
(٢٥) ابن فرحون، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق :مأمون بن محي الدين الجنان، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٢م، ص١٨٠.
(٢٦) ابن الجرزي، **غاية النهاية في طبقات القراء**، ج١، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٩٤.
(٢٧) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص٤٩، ٥٠.
(٢٨) ابن حيان، المصدر السابق، ص٩٤-٩٦.
(٢٩) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص١٤٣-١٤٥.
(٣٠) القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك**،ج٢، (د.ن)، المغرب، (د.ت)، ١٩٦٥م، ص١٨،١٩.
(٣١) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج١، ص٣٨٤.

(٣٢) القاضي عياض، المصدر السابق، ج٢،ص١٦. انظر كذلك: ابن الفرضي، المصدر السابق، ج١، ص٣٨٤

(٣٣) ابن فرحون، المصدر السابق،ج٢،ص٦١.

(٣٤) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج١،ص٣٣١.

(٣٥) ابن فرحون، المصدر السابق،ج٢،ص٣٠٢.

(٣٦) الحميدي، المصدر السابق، ج٢،ص٦١١.

(٣٧) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج١،ص٣٠٠

(٣٨) نفسه، ج٢،ص٢٤.

(٣٩) الزبيدي، المصدر السابق، ص٢٦٧. انظر كذلك: ابن سعيد، المصدر السابق،ج٢،ص٥٤.

(٤٠) ابن الفرضي، المصدر السابق،ج١،ص٤٠٦

(٤١) ابن الابار، **التكملة...**، المصدر السابق،ج١،ص٣٦٢. انظر كذلك: المقري، المصدر السابق،ج٢،ص١٥٠.

(٤٢) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج١،ص٣٩٣.

(٤٣) ابن حجر، **لسان الميزان**، تحقيق: عبدالفتاح أبي غدة،ج٤، ط٣، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٦، ص٣٧٢.

(٤٤) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج١، ص١٦٥.

(٤٥) نفسه،ج٢،ص١٨٥.

(٤٦) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص٦٥.

(٤٧) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤١.

(٤٨) ابن حيان، المصدر السابق، ص٣٢-٣٣.

(٤٩) ابن حزم، **الفصل في الأهواء والملل والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، ج٤،دار الجيل، لبنان، ١٩٩٦، ص١٩٩،١٩٨.

(٥٠) ابن جلجل، المصدر السابق، ص٨١. انظر كذلك: القفطي، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، مطبعة السعادة، مصر، (د.ت)، ص٢٥٩.

(٥١) ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص٤٨٧.

(٥٢) نفسه، ص١١٣.

(٥٣) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص٨١.

(٥٤) ابن جلجل، المصدر السابق، ص١١٣. انظر كذلك: ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص٤٨٧

(٥٥) مارستان الفسطاط ويسمى بالبيمارستان الأعلى ويعرف بالبيمارستان العتيق، أنشأها أحمد بن طولون سنة ٢٥٩هـ وقيل سنة ٢٦١هـ ولم يكن في مصر قبل ذلك مارستان. انظر كذلك: عيسى أحمد، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، دار الرائد العربي، (د.م.ن)،١٩٨١م، ص٦٧ – ٧٠.

(٥٦) صاعد الأندلسي، المصدر السابق،ص٨١.

(٥٧) ابن بشكوال، المصدر السابق، ص٣١٣.

(٥٨) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص٧١،٧٠.

(٥٩) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج٢، ص١٨٥.

(٦٠) عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص٧١.

(٦١) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج١، ص٣٦١. انظر كذلك: الذهبي شمس الدين، **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، ج١، دار الكتب الحديثة القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٧٥.

(٦٢) ابن الجرزي، المصدر السابق، ج٢، ص١٨٩.

(٦٣) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج١، ص٢٤١.

(٦٤) نفسه،ج١، ص٢٣٩.

(٦٥) ابن الأبار، التكملة، المصدر السابق،ج١، ص١٢٦.

(٦٦) السبكي تاج الدين، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد طناحي وعبدالفتاح الحلو، ج٣، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، دمشق، ١٩٦٤، ص١٨٦.

(٦٧) ابن الفرضي، المصدر السابق ، ج١، ص٩٥ -٩٧.

(٦٨) نفسه، ج١، ص٩٧ -٩٨.

(٦٩) نفسه،ج٢، ص١١٦.

(٧٠) الصفدي صلاح الدين، المصدر السابق، ص٣٨. انظر كذلك: ابن هداية الله الحسيني، **طبقات الشافعية**، ط٣، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢، ص٩٧.

(٧١) **قالِيقَلا**: بأرمينية من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد قال أحمد بن يحيى عنها :ولم تزل أرمينية في أيدي الفرس منذ أيام أنوشروان حتى جاء الإسلام وكانت أمور الدنيا تتشتّت في بعض الأحايين وصاروا كملوك الطوائف حتى ملك أرمينيا قس، وهو رجل من أهل أرمينية، فاجتمع له ملكهم ثم مات فملكتهم بعده امرأة وكانت تسمى قالي فبنت مدينة وسمتها قالي قاله، ومعناه إحسان قالي. انظر كذلك : ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٤، ص٢٩٩.

(٧٢) ابن خير، **فهرسة ابن خيرالاشبيلي**، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٨م، ص٣١٤،٣٢١، ٣١٠.

(٧٣) ألبير حبيب، **الحركة اللغوية في الأندلس**، رسالة لنيلدرجة أستاذ في الآداب، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٥، ص١٤١، ١٤٠.

(٧٤) نفسه، ص١٥٦-١٥٩.

(٧٥) الضبي، المصدر السابق، ص٣١٩. انظر كذلك: ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ج٤، ط١، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٩٣، ص١٤٣٩.

(٧٦) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص٥١٠، ٥١١.

(٧٧) ابن بسام أبو الحسن، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق: إحسان عباس، ج١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩، ص٦،٧.

(٧٨) الضبي، المصدر السابق، ص٣٢٠.

(٧٩) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، المصدر السابق،ج٤، ص ١٤٤١.

(٨٠) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص٧٨.

(٨١) ابن جلجل، المصدر السابق، ص٩٤،٩٥. انظر كذلك: ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٤٨٧،٤٨٦.

(٨٢) **المغيث**: هو عبارة عن لعوق كانوا يعتقدون أنه نافع لكل الأمراض. انظر كذلك: ابن جلجل، المصدر السابق، ص٩٥.

(٨٣) ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص٤٨٧،٤٨٦.

(٨٤) عبدالواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص٧١.

(٨٥) دويدار حسن يوسف، المرجع السابق، ص٤٠٣.

(٨٦) نوال شوابكة، المرجع السابق،ص٥٣.

(٨٧) الذهبي شمس الدين، **سير أعلام النبلاء**،ج١٢، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٢م، ص٤٠٩،٤١٠.

(٨٨) نواب عواطف، المرجع السابق، ص٤٦.